

قصة

الوصايا العشر من قانون فرسان الملك

حقوق النشر والطبع محفوظة لعائلة صخر حبش (أبو نزار) يحيى عبد السلام عبد الهادي حبش

I

في الزمن المحفور على صفحات الارض، قصص تروى .. وقصص لا تروى .. وحكايا اعجب من ان تدخل في قلب الصفحات .

وحكايتنا ليست اعجب ما في هذا الكون. لكن اعادتها تحفر فوق عظام البشر نقوشاً لا تمحى. وتذكر كل الاطفال بأن الماضي كان الدرس. فليتعلم من يتعلم مجاناً. وليدفع من لا يتعلم مجاناً ثمن الدرس الذاتي. لا ابغي ان يتكاثر حولي اللف لينتفخ الدوران. لكن الصورة كي تكتمل لتطبع في الازهان، لابد لها من بعض رتوش. والراوي ان كان يقول الرؤيا يتضاءل في شفثيه الحدث حروفاً هي اقرب للصدق. والقصة .. ان كانت بالدم معقدة وبلون الفقراء وطعم الوطن، فالشمس تؤخر غيبتها كي تكتمل الصورة في اعين من يهون الفقراء .

ولهذا .. فحكايتنا تنسجها خفة دم الفقراء وبساطتهم. وتعمدتها بالدم جراحات الفقراء .. وترويها الاعين دون كلام. ترويها الارض المسببة وحوافر خيل الفرسان. يرويها البيدر، والزعر والنعناع البري وكل طيور الارض. ترويها العتمة، يرويها النور، يرويها السجان ويرويها المسجون .

القرية صاحبة القصة كانت نصف محتلة. البيوت والفقير لاصحابها. والارض والمحاصيل لاعدائها. لم يبق لاهل القرية الا اكوام الطين والطوابين والحب الجارف للارض. كانت اعينهم كل صباح تلمح لون القمح الذهبي يعانق رائحة الجوع. واصابعهم كانت تتشقق غيظاً وهي ترى المحراث يغوص ببطن الارض. كانت آذانهم تسمع تغريد البلبل، لا تفهم بعض الكلمات. وكأن البلبل أصبح محتلاً ايضاً. ولان الجوع يحرك في النفس شعوراً يرسم اللون الحق على صدر الدم. تحركت القرية نحو الارض. عبرت أسيجة الخوف وعادت بالمحصول .

في اليوم التالي عبر القرية رعب المحتل فدمر اكوام الطين. وعادت ايدي الحصادين تصارع اسيجة الخوف .. وعاد الرعب يصب النار .. وقتل عزيز ابن المختار .

القرية ... كل القرية وقفت فوق اصابعها هلعاً ..

* مات عزيز .. ابن المختار .. قتلوه ..

* من . ؟

* اليهود ..

* اخذوا الارض الا يكفيهم . ؟ !

* لن يكفيهم .. لن يكفينا .

ان لم نقلع اشواك الغزو بأيدينا . من يحميننا ؟

وتفرقت القرية ارتالاً بالحقد محملة .. والحب. عبرت جسر الخوف على كف عزيز .. وسكاكين الشر تلامس اعناق الشوق الكامن في حب الارض .

عبر رجال القرية للمستعمرة الاولى .. للمستعمرة الاخرى .. والاخرى .. والعاشر .. وعادوا .

كانت زينب تتشبح الحزن سواداً. جاءوا بقلادة حقد مرصوصة كالتين الجاف، صنعت من آذان الاعداء المقطوعة.

نظرت زينب باستغراب.

قالوا :

هذا من اجل عزيز ..

قالت زينب :

ليس عزيز .. بأعز من الارض ..

قولوا هذا من اجل الارض .

هذا من اجل الارض .. ومن اجل عزيز ..

قالت زينب :

باسم نساء القرية .. اقول لكم :

من لم يصدق في حب الأرض .. لا يصدق في حب الامل. وامامكم الارض .. وامامكم اللص. من يزرع هذي الارض . يزرع اطفالاً .. ومن لا يزرع فليحصد عقماً .

وتوالى موجات القرية ترسم ألوان الحق على جبهات المحتلين. وتوالى الفعل .. وتوالى رد الفعل ... وحكايا .. ووصايا .. وهدايا واخيراً شكوى .. فشكاوى، عشرين .. وخمسين .. للامم المتحدة .. للجامعة العربية .. العدو ان على " اسرائيل " والارهاب ..

والى القرية جاء الفرسان ..

هل منكم من يعرف معنى ان يأتي الفرسان الى القرية ؟

هل منكم من لا يعرف معنى ان يأتي الفرسان الى القرية .

من يعرف .. فليخبر من لا يعرف ..

ومن لا يعرف .. فليصدق من يعرف ..

وليس مهماً ان نعرف .. او لا نعرف .

ان لم نعرف كيف سنمنع عودة ايام الطاعون .

II

أبو علي .

حفار يعمل في سلطة المياه المركزية .

فلسطيني .. غادر قريته منذ كبسة الطاعون . تعلم الحفر على يد "العسلية" اهم حفار قبور عرفته منطقة جبل النار .

عندما حاول ان يحصل على جواز سفر طلبوا منه ان يسمى .

قال عامل .

سألوه .. عامل .. ماذا ؟

لابد لهذا الامر .. من توضيح .. فالعامل حاف . يعني عاطل .. يعني شيوعي ضد الدولة . شطب العامل .. اصبحت المهنة : حفار . والحفار ، هو كل من يضرب وجه الارض ليصل قفاها . واكراماً للمهنة تعلم حفر الابار .. واصبح مسؤولاً عن حفارة دق امريكية في سلطة المياه المركزية .

في الليل .. كان أبو علي يعشق لعب الورق مع العمال .. يسرقهم .. يكسب . ثم يعيد لهم كل الاموال ليؤكد سطوته وتفوقه وحنانه . كانت حفارته الامريكية تحفر بئراً في قاع الديسي .

ما ابعد قاع الديسي عن عمان .. ساعات تقضيها والروفر ينهب وجه الارض .. ووصلنا . كان الماء المتفجر بحراً في قلب الصحراء يفتح بارقة امل .. لكن من يعمل في الارض لكي تزهر .. البدو .. طبعاً لا يرضون العمل سوى في الجيش .. او الحراسات .

ولاول مرة .. شاهدت امامي بدوياً يعشق عملاً . كان الحارس للحفارة . لا يقضي الوقت في لف التبغ ولعب السيجة كالحراس . كان يمد يديه يساعد عمال الحفارة . يمسك حبل الحفر .. ويزيح الشفاطة . يعمل يديه كعامل حفارة .

من لا يعرف طبع البدو .. لا يستغرب .. اما انا .. اعرف . استغرب .. وسألت ابا علي : فأجاب : طبعاً يختلف عن الباقيين .. هذا نصف فلسطيني .

كيف ؟

زوجته فلسطينية .

هل تساعدك ؟

طبعاً .. ان لم نفلح في تحطيم قوانين البادية البالية ، كيف نفيد من الحفر . ومن هذا الماء المتدفق .. هو لا يحتاج كثيراً لمساعدتي هو اصلاً يختلف عن البدو .. طلق عادات البادية منذ سنين ، منذ تزوجها .

تزوج ماذا ؟

هل تقصد عادات المدن ام عادات الفلاحين ؟

اقصد شيئاً آخر .. اني اعرف زطام منذ ثلاث عشرة سنة .
ماذا !!

منذ ثلاث عشرة سنة .. هو لا يعرفني الان .. وانا لا ابغي ان يعرفني .
لكني اعطيه الفرصة اكراماً لشجاعة موقفه .. ولها .
لم افهم شيئاً .
سأوضح لك .

اخذ ابو علي .. نفساً من سيجارته واتكأ على طرف الكرسي وقال :
ما اقدم قصتنا .. ترجع للخمسينات .. لبدائيات الخمسينات . كان زطام شاباً في العشرين .. كان فارساً ..
بل كان زينة الفرسان .. ناضر الوجه .. طلق اللسان يتمختر فوق حصان من نوع نادر .
جاء الى قرينتنا ذات صباح بائس . كانت اصوات الفرسان تدوي تختلط بضربات الحوافر فتهتز القرية .
مطلوب ان يتجمع كل الناس على البيدر .. فوراً .
وانهالت فوق الاجساد سياطهم لا ترحم احداً ، لا تعرف فرقاً بين الطفل وبين الام .. ولا تسمح صوتاً يرفع
او يسترحم . وعلى البيدر صار رجال القرية كومة بؤس في قلب الدائرة المصنوعة من اجساد الخيل . وتقدم
شيخ الفرسان وصاح :

قال كلاماً مملوءاً بالنفزة وبالعصبية ، فلم يفهم احد كلمة . وتقدم زطام ليكمل قال يا اهل القرية .
جنبنا لنعاونكم .. من يتعاون معنا يسلم .. فرسان الملك كرام مع من يكرم نفسه .. نحن اتينا كي نقطع دابر
كل لصوص القرية .. كل الخونة .. كل المنحرفين . من لا يرعون لجار حرمة .
يا اهل القرية .. امهلكم عشر دقائق لتقولوا من هم اوغاد القرية .. لصوص القمح .. والبقر وقاطعي اذان
الجيران . ومن يصمون كرامة وشهامة اهل القرية .. امهلكم عشر دقائق . منذ الان .

III

اخذ الهمس طريقاً .. والوشوشة امتدت تحفر آذان رجال القرية. من يخبر فرسان الملك عن فرسان القرية؟! عن فرسان الوطن وعشاق الارض.

الشمس احترقت غيظاً وهي تحاول ان ترتفع الى اعلى، ومرت عشر دقائق كالبرق. وتقدم زطام على ظهر الابجر، يتمختر، يحجب نور الشمس، يلوح بالسوط وقال:

انتهت العشر دقائق .. فليتقدم نحوي كل لصوص القرية .. فوراً .

لم يتحرك احد من ارضه. صال وجال يميناً وشمالاً وصرخ:

قلت امامي فوراً كل لصوص القرية.

وهوى بالسوط ليدهمى وجه الريح. لم يتحرك احد .

اندفع الشيخ زعل .. شيخ الفرسان صرخ. وصاح .. ارغى .. ازبد وهوى بالكرباج على اجساد رجال القرية. فتعربشت الايدي تتكوم تتشابك تصنع جسراً يحمي الرؤوس.

لكن الدائرة اكتملت. عشرات الفرسان امتدت اذرعهم بسياط عطشى للدم .. وجوعى متخمة بالحقد .. واختلط صراخ الالم بأنات الجرح واصوات نساء القرية بزغاريد الفرسان. وصهيل الخيل. وتوقف شيخ الفرسان عن الضرب .. وصاح:

تمام.

فتوقف كل الصخب وسيطر فوق الرعب انين الالم المختلط ببقايا الاصوات الاخرى. وتقدم زطام وصاح:

اسمعوا . ياكلاب .

ما جئنا كي نلعب .. جئنا لننفذ امراً. اما ان تقفوا معنا فنساعدكم، او نقلب قريتكم سافلها عاليها. اعطيكم عشر دقائق اخرى للتفكير.

وتمايل زطام على ظهر الابجر ثم صرخ.

اين المختار؟؟

وتعالى رأس الشيخ الخمسيني، تجاوز حد الكومة، وقف وكان كواسطة العقد .

نادى زطام بصوت مبجوح .

تعال .

فتوجه مختار القرية ناحية الفارس زطام. قال له هذا :

يا مختار .. انت المسؤول .. تعرف كل لصوص القرية. من هم ؟ قل .

نظر المختار الى زطام بوقار .. وقال :
ليس هنالك اي لصوص في قرينتنا .
وهوى زطام على وجه المختار بسوط حاقد وهو يصيح :
شايب .. وعايب .. وكذاب .
وقف رجال القرية يهتزون كقطعة غيظ لامسها الحقد .
اندفعت من قلب نساء القرية قامتها المشوكة كالرمح . القت بالصدر على جسد ابيها المختار وعيناها
شزراً تطان ملامح زطام .
من يد زطام سقط السوط .. داست زينب فوق السوط .. عيناها كالشمس الحارقة على جسد الفارس .
وتراجع زطام .. وتراجع واندفع بعيداً .
وتقدم شيخ الفرسان يفرقع بالسوط وقال :
اذهب يا مختار . جهز للفرسان غداء اليوم .. لا تبخل .. خمسين دجاجة .. وحمماً .. وخروفاً محشياً . لا تنس
التن البحاري .. والخيول .. لاتنس .. خيل الفرسان لا تأكل تبناً بل علفاً مخلوطاً باللوز وبالسكر .. خذ معك
النسوان .. واتركنا لنؤدبهم .
فالיום يوم الفرسان .. معكم عشر دقائق اخرى .. عشر دقائق .. منذ الان .

IV

مرت عشر دقائق اخرى ...

لم يتقدم احد ...

قال الشيخ زعل

وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون ...

واتجه الى الفرسان وصاح :

مادام الكفار لا يبيغون الطاعة لاوامر سيدنا .. واوامر الله .. اصبحت القرية مباحة لكم. اقلبوها .. سافلها
عاليها نفذوا فيها الوصايا العشر

من بين الجمع ارتفع صراخ لاهث ..

لا .. لا .. انا اخبركم عن كل لصوص القرية .

وانصبت كل النظرات على صاحب هذا الصوت المتبرع لخيانة قريته .

. صرخت كل الاصوات ..

اخرس كذاب ..

وتقدم من بين الجمع، توجه ناحية الشيخ زعل وقال :

اسمع سيدي .. انا اسمي عوض .. انا صاحب دكان القرية. كل المسروقات من المستعمرة تباع الي ... انا
اعرف كل لصوص القرية .. اعرف من باعوني ما سرقوه من الغنم، والبقر، والمحصول. وسأخبركم عنهم ..
لكن لا تقتربوا من دكاني فأنا معكم .. ومع الله .. مع الفرسان انا .. انا اسمي عوض. وتطلع زطام الى عوض
محتقراً اياه، ابتسم بسخرية. وتوجه للجمع وقال :

هذا يعرفكم. ويعرف من منكم يخترق حدود الجيران ويسرقهم او يقتلهم .. حتى لا نطلب من هذا الرجل
الاسماء. نحن نحب الشجعان .. فليتقدم نحوي من منكم دخل الارض المحتلة .. لاي سبب .. فليتقدم .. فوراً ..

وتحرك كل رجال القرية نحوه .. التقوا حوله .. اصبح وسطهم والابجر، يصهل غيظاً، صاح زطام .. ما هذا ..
كل رجال القرية دخلوا الارض المحتلة ؟ !

وتداخلت الاصوات مؤكدة ان جميع رجال القرية دخلوا ارض القرية المحتلة .

عدنا للارض .

قطفنا زيتونا ..

حصدنا قمحنا .

للمنا الزعتر والنعناع البري ..

لا نعترف بأي حدود .. الارض لنا ..
عدنا للارض .. كلنا . عدنا للارض .
وارتفع صراخ عوض ..
لا يا سيدي .. انا لم ادخلها ابداً . اقسم بالله .. بالملك وبالفرسان ..
لم ادخلها ابداً .. كلهم دخلوها .. الا انا .
وفرقع سوط الشيخ زعل وهوى قطعة غيظ فوق رؤوس الجمع . وتحرك ابجر زطام يدق الارض بحافره .
واندفع بعيداً عن وسط الجمع . وانكمش رجال القرية كومة بؤس تتشابك فيها الايدي كي تحمي الرؤوس .
صاح الشيخ زعل ..
اليوم . يوم الجلد . يوم الجد يا فرسان
اجلدوهم واحداً .. واحداً ..
وابتداً العد العكسي .

V

ابتدأ الجلد ..

ابتدأ العد ..

وخيل الفرسان تحيط كحلقة جمر. وفريستها تدخل كالريشة تحت سياط الخوف تدور. تهرب من اين الى اين .. كل مسافات الحلقة في مرمى السوط .. ينهمر الجلد ولا يتوقف الا والجسد مسجى كالصخرة مغشياً.

وينادي الشيخ زعل ..

غيره .. كم بقي علينا ؟

يدخل للحلبة ثلاث رجال .. واثنان لحمل المجلود المغشي عليه .. والثالث كي يجلد. وتعود اللعبة .. وصهيل الخيل المتمازج مع صرخات الفرسان يطغى فوق انين الجرح الدامي. كان المجلود يدور كديك مذبح ينتفض ويسقط .

وتعود اللعبة ..

ضربوا كل رجال القرية . الا المختار ..

وانت .

طبعاً .. نقت كرابيج الفرسان .. ما اطيب ان يتذوق كل المظلومين لسعات الظلم. قد علمني طعم كرابيج الفرسان دروساً لن انسهاها. وعلى جسدي ستظل حروفاً تقسم باسم فلسطين. باسم الوطن المحتل من الاعداء وباسم الارض المحتلة من قبل الاهل. كان الفرق هو القسوة. المحتل يريدنا بعيداً. والملك يريدنا بعيداً .. والشعب الفلسطيني كان قد اختار طريق الثورة منذ القسام وقبل القسام .. دفع قوافل شهداء وابطال من اجل الحرية والاستقلال .

حين تكوم فوقى لسع السوط تصنعت الاعماء. ما ابأس ان يختار المرء الغشية. ما ابأس من يبتعد عن الواقع مختاراً. لم يتوقف سيل سياط الفرسان. وخرجت من الدائرة المرصوفة بالحقد أكثر اصراراً على عشق الارض .

وسألت ابا علي :

عوض . صاحب دكان القرية ..

هل ضربه ؟

نعم .. ضربه .. وادموه ..

كان العد العكسي قد وصل الى الصفر. وصاح الشيخ زعل :

هل بقي احد ؟

صاح عوض :
لا .. الكل انجلد .
وتتقدم زطام نحو عوض .. لف السوط على عنقه .. ادخله وسط الحلبة .
هذا كلب القرية .
وارتفع صراخ عوض .
- في عرض سيدنا .. في عرض الله .. في عرض الفرسان .. انا منكم .. انا معكم .
وتسارع ساعد زطام بلا رحمة حتى انهيار عوض .. وتكور في عرض الارض .

VI

وجاء الليل

جاء القلق المتمازج مع الوان الافكار السوداء. والخوف يخيم.. والرعب يخيم لكن الصور المتناطحة مع
الاعين كانت كالمخرز. ماذا يجري.. كل رجال القرية ربطوا في ارسن خيل الفرسان.. ذهب الفرسان..
غابوا.

ونساء القرية غبن عن الانتظار.

اين الفرسان؟

ين الفرسان؟

وارتفعت صيحة قلق مزقت الليل.

- الله اكبر.. الله اكبر.

وتردد صخب الصيحة في الاجواء.. كان صدى يتمازج كالرعد الهادر. واندفع الفرسان الى حيث رجال
القرية.

ماذا يجري؟!

واختلطت اصوات الرد مع الغيظ.

النار ولا العار.

ابتعدوا عن نسائنا.

وارتفع صراخ الشيخ زعل:

لو انكم رجال.. لكان عندكم نساء.

وعلا الصوت المتفجر بالغيظ.

الله اكبر.. الله اكبر.

وتمزقت الارسن.. هاجت بعض خيول الفرسان مع الصخب.. وماج الليل مع الشرر المتطاير من صك
الاسنان.

ارتبك الفرسان.

الاحصنة الهائجة انطلقت. وتجرجرت الاجساد المرعوبة واختلط الحابل بالنابل.

النار ولا العار.

الموت ولا المذلة.

لم يجد الخوف من الجلد طريقاً لحد. فالخوف من الصور النكراء اشد .. هل يسكت رجل تغتصب امراته ؟
.. وازداد الصخب وكان صدى الافق يردد :

الله اكبر ... الله اكبر .

النار ولا العار

الموت ولا المذلة .

وتهادى المختار الى الجمع وتساءل :

ماذا في الامر ..؟ ما هذا الهرج وهذا المرج ؟ هل قتل احد ؟ وتعالى صوت من بين الجمع يجيب : يا
مختار .. هل يرضيك ان نربط مثل حمير النور وتترك كل نساء القرية في احضان الفرسان .. النار ولا
العار .

قال المختار بصوت صاخب :

لا حول ولا قوة الا بالله .

كل نساء القرية عندي في البيت . في بيتي . مع بنتي . مع زينب .. ما من مكروه مس امرأة في القرية .
وتساءل صوت .

والفرسان . اين الفرسان ؟

ذهبوا للنوم .. في بيوت عوض وخميس وابو محمود .

وارتفع الصوت المتسائل :

والشيخ زعل .. الم تسمعه يبيح لهم كل القرية ؟

قال المختار : استباحوها .

قلبوا ساقلها عاليها .

لن يعرف اي منكم بيته .

وارتفع سؤال :

وعوض .

هل انقذ دكانه .. بقذارته .. وخيانتته ، هل انقذها ؟

رد المختار :

لم ينقذها لخيانته .. بل لنؤمن منها الاكل لهم .

وإلام سنرضى يا مختار بهذا الظلم ؟

صبراً .. ستزول الشدة .. انشاء الله .. ناموا وعلى الله التدبير .

وتقدم زطام وقاطع :

كيف ينامون .. لانوم لهم .. وسنسلهم . الصبح سنسلهم اولاد الكلب .. والخيل انزعجت .. هاجت من

ضجتهم .

من اجللك يا مختار فقط. سأرجوا الشيخ زعل حتى لا يسحلهم .

رد المختار :

العفو من شيخ الكرام .

وتوجه ناحية القرية وعيون الفارس تتبعه في الظلمة، فتضيع مع الخطوات الأهات الكتومة. كانت صرخات رجال القرية والخوف المتربص في اعينهم قد ذابت بعد حديث المختار. والهمس تباعد واختلط ببعض شخير. ظلت صورة زينب وهي تدوس على السوط. ويهرب من عينيها زطام تجلل اجفان الصاحين. خافوا ان ينتقم الفارس منها. كانت صورتها وهي تصرخ تتبادل مع صورتها وهي تقول لهم يوم اتوها بقلادة آذان.

ليس عزيز بأعز من الارض .

قولوا هذا من اجل الارض .

باسم نساء القرية .. اقول لكم :

من لا يصدق في حب الارض. لا يصدق في حب الاهل وامامكم الارض .. وامامكم اللص .. من يزرع هذي الارض يزرع اطفالاً .. ومن لا يزرع .. فليحصد عقماً ..

لعيونك يا زينب. كل رجال القرية زرعوا الارض، انجبت الارض .. وتضاعف عدد القرية في عام .

VII

اقبل فجر اليوم التالي يركض. ما مس النوم جفون القوم. وكانت صيحة زطام الغاضبة تدور على الاعناق. كان الغضب قد انهال على الفارس بعد ان اكتشف اصابات الابر. ظل يسب ويرغي. يقسم ان يسحل حتى الموت من جرحوا الابر. وقبل صياح الديك امتلاً سماء القرية والبيدر بصراخ الفرسان.

صاح الشيخ زعل:

من جرحوا الابر ؟

من ازعجوا الخيول ؟

ليحضروا هنا امامي.

اليوم يوم السحل.

كان الفرسان قد ابتدأوا تحضير حبال السحل.

جاء المختار. وكان حزيناً .. ومكتئباً وهو يشاهد مطر الحقد يصب على اهل القرية. كان العجز يداهم قلبه. ماذا يفعل. اتجه الى حيث نساء القرية .. كانت تقترب من الضجة بعض الفتيات. ورأى زينب كالراية تقترب من الساحة. نظر الى زطام. كل اللعبة بين يديه. هل يرجوه؟ كان الفارس قد وعد بأن لا يسحل احداً. ماذا غيره منذ الامس. اقترب ببطء من زطام وسأله:

هل ستسحلونهم ؟

الابر .. جرحوا الابر يا مختار.

لا حول ولا قوة الا بالله .. ولكن .. هل يشفى الابر ان سحلوا ؟. انسييت الوعد؟ قلت سترجو الشيخ زعل حتى لا يسلمهم.

كانت زينب قد وصلت قرب ابوها. سألته:

ماذا يجري ؟

بعض رجال القرية جرحوا الابر

كيف ؟

نظرت كالشمس الى زطام .. كان الوهج قد اختلط مع الفرع على وجه الفارس قال بصوت خافت: من ضجتهم هاج الابر في الليل فوق في حفرة.

نظرت زينب نحو الفرسان وهم ينتظرون اوامر زعل.

سألت:

والآن .. ماذا يجري الآن ؟

رد المختار وعيناه على زطام .
سيسحلون من جرحوا الابجر . نظرت زينب بعيون لاهثة يهطل منها الغيظ على الارض .
ماذا .. هل يسحل انسان من اجل حصان ؟!
زطام انتفض وقال :
من اجل الابجر .
قالت غاضبة :
الابجر .. الاخضر .. كل خيول العالم لا تسوى اصبع انسان .
هذا رأيك .
هذا رأي القرآن .
قال المختار وقد خشي هطول الشر .
زطام وعد بأن يرجو الشيخ زعل حتى لا يسحلهم .
سقطت نظرة زينب في بؤبؤ زطام .. كانت عيناه تشعان بفرح الكرم العربي فقال :
من اجلك يا مختار .. لن نسحلهم .
ابتسمت زينب .
استطرد زطام .
ادع لي بالتوفيق .
واتجه الى حيث الشيخ زعل . كانت كشرة نيرون قد احتلت جبهته والكوفية مثل بقايا حقل محصود قد حطت ظل خريف في عينيه . كان الفرسان قد ابتدأوا ربط ضحيتهم احمد موسى . فلاح في العشرين يملك ارضاً محتلة وكوخاً من طين وله ولدان .
زطام يميل على الشيخ زعل .. والشيخ زعل يميل على زطام .. والهمسات ارتفعت . واشارات وسياط ترتفع وتهوي ، وعيون تتطلع نحو الفرسان . وزينب تسكب نظراتها بحنان .
احمد موسى .. ابن القرية .. فارسها ، يسحل من اجل حصان ! اتجهت زينب نحوه .. قالت للفرسان : فكوه .
الشيخ زعل كان قد انتفض من الغيظ وقد اقنعه زطام بعدم السحل . زطام اتجه الى حيث الفرسان وزينب .
قال : فكوه .
ابتسمت زينب .
قال :
الشيخ زعل سامحك هذي المرة . لن يسحلكم .. لكن لابد من عقابكم .. من جرحوا الابجر لابد من جلداهم .
واتجه الى الفرسان وقال .
جهزوا المحفل .

نظروا الى زينب .. كانت غاضبة، تتعد وفي عينيها تسكن آلام الوطن الشاسع. اقتربت من والدها، كان يتمتم:

يا فتاح يا عليم. قالت:

لأبد من حل.

قال: الجلد ولا السحل.

ومضت زينب نحو القرية غاضبة تتبعها النظرات المحترقة.

وابتداً الجلد.

وابتداً العد.

VIII

امتد الكابوس على القرية اياماً .. كان الشهر الاول قد بدأ يغادر حين انتصر الجوع على القرية. ما عاد بوسع القرية اعداد الاكل الخاص للفرسان. الدكان امتلأت بالمرهونات وعوض ابتداءً يجوع مع القرية. قال الشيخ زعل للمختار :

غداً .. نريد عاجلاً مشوياً .

قال المختار :من اين ؟.

قال زعل :

من تحت الارض . اخلقوه .

وخلقوه .

في اليوم التالي كان الفرسان يغوصون بأذرعهم في جسد العجل المشوي .. لم يسأل احد من اين .قال الشيخ زعل :

ماذا نأكل غداً ؟

اطلب .. وتمن .

قال زعل :

هل حلت عقدتكم ؟

قال المختار :

انشاء الله .

(واسرّ لنفسه) وابتدأت عقدتكم .

وتوالت ايام بدأت فيها رائحة الارض تعود. وابتدا الفرسان يعيشون مع القرية كالأهل . وتمزق قانون الفرسان .. بدأ الشيخ زعل لا يهتم سوى باللعب مع المختار .

وزطام يحاول ان يقترب من اهل القرية. والفرسان ينامون اليوم بطوله .. والخيول ابتدات تزحف نحو الامم المتحدة. الجامعة العربية .

موجات عبور الارض المحتلة بدأت ترسم ظلاً من لون الحق على جبهات المحتلين. وتوالى الفعل .. وتوالى من يسأل ..

-والفرسان .. ؟ .. هنالك فرسان في القرية .

فرسان في قرية .. لكن قرى اخرى تتحرك .. من اين سناتي بالفرسان لكل قرى الضفة الغربية. لكل حدود الارض المحتلة .

فجاة.. غاب عوض .
وجدوه قتيلاً في الارض المحتلة .
قال الشيخ زعل :
كل رجال القرية دخلوا الارض المحتلة .
قال زطام :
اوصاني عوض ان غاب ان اعطي المرهونات لاهل القرية .
قال المختار :
لقد اعادها بنفسه قبل ان يغيب .
قال المسؤولون :
عليكم تغيير الفرسان في القرية اسبوعياً . فالفلسطيني كالافيون . من يدمن معاشرته عليه العوض . وابتدأ
الشيخ زعل يتأهب للرحيل .
سألت ابا علي بلهفة :
هل بدلوهم بفصل جديد يقطر حقداً ؟
قال :
لم يكن الوقت لصالحهم : فلقد فرض القدر عليهم ان يتولوا صنع الحلقات .
وتساءلت :
حلقات .. ماذا . ؟
حلقات النذب .
البكاء بالاكراه .
ولماذا ؟
قتل الملك عبد الله .. كان الليل يغادر ارض الضفة الغربية . وامتلاّت وجنات الناس بفرح مغموس بألم .
الخائن مات .. باع الارض ومات .. ظلم الشعب فمات .. من يبكي حزناً .. لا احد سوى العملاء .. من يبكي
فرحاً .. كل الناس .. حلقات النذب امتدت في المدن . في المخيمات .. حداد بالاكراه .. وبكاء بالاكراه .
على الشفاه تمتمات .
يا مليكنا يا غالي .
يا محقق الامالي .
وفي القلوب اغنيات .
تسلم ايديك يا عشو .

اعرفت كيف تكشفو.

وسألت :

وهل عادوا بعد ذلك الى القرية ؟

قال :

زطام عاد .. كان وحيداً .. جاء لخطب زينب .

قلت :

طبعاً قبلته .

قال :

كان غريباً ان تقبل .. لكن السبب عرفناه .

فلقد نفذ زطام الوعد .. زينب قالت :

من لم يصدق في حب الارض لا يصدق في حب الاهل .. وامامكم الارض . وامامكم اللص . من يزرع هذي الارض .. يزرع اطفالاً .. ومن لا يزرع فليحصد عقماً .

وزطام كان يحب الاطفال .. ويحلم بالاطفال .. فزرع الارض .

IX

كانت شمس الصحراء قد امتصت بعض البرد. وكان البئر المتفجر في قاع الديسي قد اعطاني دفعة فرح. كانت عيناى تحاولان ان تتخيلا صورة قرية يدخلها الفرسان. وامامي رائحة من فارس. قلت لنفسى: سانام الليلة في الصحراء وسأسهر مع زطام.

قال ابو علي :

كما تشاء .. لكن ارجو ان لا يعرف من اين انا .. هذا سري. ونظرت الى عينيهِ الحالمتين. كانت صورة زينب تهطل من بين رموشه .. وسالته :

هل احببتها ؟

ابتسم وقال :

كل رجال القرية احبوها .

وانت . الا زلت . ؟

تأوه .. قال :

ثلاث عشرة سنة .. عندي الان خمسة اطفال .

ستنام في تلك الخيمة وسارسل لك زطام .

وانت ؟

اتسلى في لعب الورق كي اتركك وحيداً مع زطام .

واتى زطام بركوة قهوة .. وجلسنا .

كان خجولاً يتحاشى ان ينظر نحوي. ويخاطبني بتحفظ قلت له:

ان الصحراء بدون الماء كالقبر .

فقال :

صحيح .. ولكن الماء بدون زراعة .. يذهب هدرأً او يبقى في جوف الارض .. ما فائدة الابار اذا لم تجعل هذي الصحراء تزهر بالخضرة ؟.

قلت :

هذا يتوقف عليكم .. انتم لا ترضون العمل سوى في الجيش او الفرسان .

ابتسم وقال :

ها انذا اعمل. واحب الارض .. اتمنى ان ازرع كل الصحراء .

قلت :

انت شواذ .. اما باقي البدو فلا يرضون العمل .. قالوا لي انك ترضى ان تعمل لانيك نصف فلسطيني .
اندهش وردد .

نصف فلسطيني ! .. ماذا تعني ؟

قلت :

زوجتك فلسطينية .. هل زرت فلسطين

شرد قليلاً .. كان يفكر ثم سأل بحدة .

من اخبرك بأن امرأتي فلسطينية ؟

غضبت لحدثه وسألت بحدة :

وهل هذا عيب ؟

اعتذر بلهفة .

هذا شرف .. لكن ما من احد يعرف ذلك . من اين عرفت ؟

وسرحت قليلاً .. كان ابو علي قد غرق في لعب الورق مع العمال ترك السر معي .. قلت لزاماً: احد الحراس
البدو على حفارة، قلت له ان يعمل مثلك، اخبرني انك تختلف عن البدو .. وانك نصف فلسطيني .

امتد على وجنته لون الراحة .. وانتقل الي شعور الفرح بكتمان السر وسألته :

هل زرت فلسطين .. اين ذهبت ؟

اطلق زفرة الم وتأوه .

معظم ايامي السوداء مرت في ارض فلسطين .

سوداء . وكيف تزوجت ؟

قال : لاصبغ ايامي باللون الابيض .. لم ادخلها بعد زواجي .. اقمتم هناك ثلاث سنين تعذيب . وتصنعت
الاستغراب .

تعذيب .. هل كنت سجيناً ؟

بل سجاناً .

اين ؟

في سجن فلسطين .. سجن الضفة الغربية . كل الضفة الغربية كانت سجناً .. غزوناها وعذبناها .. نفذنا فيها
قانون الفرسان .

هل كنت مع الفرسان ؟

اجل .. كنت ضابطاً في فرقة الطاعون .

ولماذا كنتم تقسون على اهل الضفة الغربية وهم اخوتكم في الدين وفي القومية ؟

ابتسم وقال :

ما كنا ندرك ذلك .. قالوا انهم كفار .. وزناديق .. وبلشفيك .. وتجار .. وباعو الارض، وكنا نطبق عليهم الوصايا العشر .

وسألته :

وصايا سيدنا موسى ؟

ابتسم .

اي موسى .. وصايا سيدنا الملك . كانت هي ناموس الفرسان . مقدسة كالقرآن .

قلت له ان يذكرها لي .. قال :

نسيتها .

وتأوه في حزن واستطرد .

من ذكرنا بالايام السود ؟

قلت له :

نتذكرها حتى نشعر بحلاوة هذه الايام . او لم تعرف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحث الناس على زيارة القبور . فهناك بين الاموات يتأكد الزائر انه حي . وحديث الماضي يفتح آفاق المستقبل . ووصايا الفرسان مهما كانت قاسية فلنتذكرها حتى لا ترجع ناموساً .

ضحك وقال :

يبدو ان الايام تعود الى الخلف بسرعة . في الاسبوع الماضي .. ضرب الاعداء جنين وطولكرم .. قالوا ان فدائيين فلسطينيين دخلوا الارض المحتلة . وغداً ستعود الامم المتحدة والجامعة العربية تطلب ان تدخل فرق الطاعون لتطبق قانون الفرسان .

قلت له :

دورك انت .. ان تخبر كل معارفك بأن القانون غلط .

ابتسم ومد يده للركوة .. كانت فارغة .. وقف وقال :

لقد نشفت . فنجان الساده اجمل ما يدخل للمخ فيعدله .

قلت له :

وتعود لتكمل مشوار وصايا الفرسان .

قال :سامحك الله .. ولاذكرك بسوء .

قلت :

وتذكروا .. ان الذكرى تنفع المؤمنين .

X

تتسارع في ذهني الاحداث .. ينكشف غطاء الجمر. ويتلاشى الرماد. الزوبعة وانفتاح الصحراء يغذان من مسيرة الريح. يرتعد الحاضر هلعاً من ذكر الماضي. ها هي كل الايام السود .. ايام انتزاع الحلم والارض والانسانية من تحت اظافرنا تتكدس ثانية في فنجان القهوة .. فنجان الساده .. يصنعه زطام لينسكب في جوفي فيعيد الى صدر الجمر ثوب الرماد .. او يطفئ بعض الجمر.

وتخيلته .. زطام الفارس يدخل ممشوق القامة والسوط يلوح كأفعى فاغرة فاها. والحدق المترسب في اخمص قدمه، يشع من دائرة المهماز الصفراء المنشارية. هذه الهيئة سرقت حلمي، سرقت طعم النوم من الاعين الفلسطينية جيلاً كاملاً.

هل ينطفئ الجمر اذا اندلقت فوقه قهوة مرة كايام الفلسطينيين في السجن .. لقد ابطأ زطام .. والقهوة لا تحتاج لهذا الوقت .. ام انني اناك في اهداب الزمن فتكبر أوقاتي .. تصبح لحظاتي دهرًا .. ها هو اقبل .. الان اراه .. يتناول من جوف الماضي يحمل سوطاً وقناع غضب يترجل كالغيمة. يمطر وحلاً .. وذباباً وعذاباً .. يبحث بين مسامات الايام عن اسمي عن لوني عن عنواني كي يصنع لي سجنًا تحت جدار الخوف.

ابتسم وناولني القهوة.

طرد الحلم. سمرني في الواقع.

القهوة المرة تعدل الدماغ .. وتنعش الروح.

قال وهو يشفط فنجانه بصوت واضح.

قلت :

نعم والذكرى ايضاً، حتى لو كانت مجبولة بالدم وبالاهاث، الا انها تنعش الروح وتفتح درب المستقبل بمفتاح الماضي.

قال :

لا زلت مصرّاً يبدو ان تحملني للماضي .. الماضي كان والحاضر دكان المستقبل بيد الله. ضحكت .. وابتسم واردف.

الوصايا، تريد الوصايا . لقد تذكرت معظمها مع غليان الماء .. وحين فارت القهوة وانسكبت فوق النار نسيت نفسي .. واضطرت ان اعيد عمل القهوة .. واعيد عملية التذكر .

وهل تذكرت ؟

نعم .

قلت : هات ما عندك .. وانقلني للماضي .. فوق بساط الوصايا العشر من قانون فرسان الملك.

تربع على السرير الضيق وسحب نفساً طويلاً من سيجارته المتلاشية ثم ملأ فنجان القهوة .. واتى عليه

برشفة واحدة وقال :

والان نبداً .

كان يا ما كان، في الزمن الفلسطيني تاريخ مكتوب بالدم على جبين الصغار وبالكرايبج على ظهور الكبار .. كانت فلسطين يومها مشجوجة الرأس .. وقد علمنا الاسياد يومها ان سبب البلاء وخراب الديار هم الفلسطينيون الكفار .

وحتى ننقذ ما يمكن انقاذه . ونظهر القدس من الرجس . تحرك سيد البلاد ووضع جيشه للعدو بالمرصاد .. فحمى الحدود وكسر شوكة العدو اللدود .. ولكن الفلسطينيين ومعظمهم من الزناديق البلشفيك، رفضوا ان يخضعوا للملك بحجة انه من سلالة النبي .. وانهم لا يريدون ان يرجعوا بالتاريخ الى الوراء .. فكثرت تأمرهم واستفحل امرهم واخذوا يطالبون بالكيان . وبالاستقلال عن بلاد القرآن . فما كان من سيد البلاد الا ان امر بأن يعهد الى كتيبة الفرسان باعادة هؤلاء المرتدين الى حظيرة الايمان . وكان ما كان .

والان ايها الفارس المغوار عليك ان تحفظ الوصايا العشر كما تحفظ الفاتحة .. وعليك ان تنفذها كالصلاة فهي دليلك الى فعل الخير والله الموفق .

الوصية الاولى :

الفلسطيني كالاسفنجة .. اذا رفعت قدمك عن رأسه شمع . فدى عليه حتى يوم القيامة . وقتلتني فظاظة التشبيه فتأففت . نظر زطام الي وقال :

لقد تطورت الامور عند الكثيرين .. فقائد فصيلنا الشيخ زعل قبل ان يحب الفلسطينيين كان يحرف الوصية الاولى ويقول :

الفلسطيني كالزنبرك . اذا رفعت قدمك عنه قفز وقلع عينيك .

الوصية الثانية :

لا تحترم رجال الدين لانهم راس الفتنة واساس البلاء .

وسألت مستغرباً :

كيف ؟

قال : وهو يستطرد في تلاوة الوصية .

الم تأتكم اخبار الشيوخ الذين باسم الدين غرقوا في السياسة وخدموا الشيطان . الشيخ القسام طالب بتقسيم فلسطين . والحاج امين سلم الد والرملة لليهود حتى لا تظل في ايدي المسلمين .

وعلقت قائلاً :

الى هذا الحد كانوا يزيفون التاريخ !؟

رد زطام .

واكثر .. اسمع

الوصية الثالثة:

اضرب كبار السن وعلية القوم قبل ان تضرب العامة

وسألت :

ما الحكمة في ذلك ؟

قال :حتى لا يحلم احد بالشفاعة .

قلت :

والوصية الرابعة :

قال :

اهينو الرجال امام نسائهم حتى تحطموا كبرياءهم وصلفهم وغرورهم .

والخامسة :

اذا استبحتم قرية فاقلبوا عاليها سافلها، واخلطوا المتناقضات. الفحم مع الطحين والزيت مع الكاز والسكر مع الملح .. لانكم اذا خلطم الفحم بالكاز. والطحين بالزيت والسكر مع الرز، فانكم بذلك تساعدون العصاة على الطبخ .

ابتسمت وقلت :

هذه الوصية مليحة .. ويطبقونها جيداً .

الوصية السادسة :

لا تفضلوا انفسكم على خيولكم. فاذا طلبتم لانفكسم الخراف المحشية والدجاج المحمر، فان الخيول بحاجة الى الشعير المخلوط باللوز، اللوز المقشر المطحون مع السكر .

الوصية السابعة :

لا تضربوا النساء مهما كان السبب. فاذا اساءت امرأة التصرف فاجلدوا زوجها او اقرب الناس لها .

قلت معلقاً :

بهذا تستطيع المرأة ان تحكم على زوجها بالجلد متى تشاء .

قال باسماء :

كثيرات عملنها .. ولكن مصيبتهن تبدأ بعد ان نرحل .

الوصية الثامنة :

اتلفوا ما استطعتم من متاع الاشقياء .. وكلوا واشربوا هنيئاً من زادهم. ولكن لا تأخذوا فوق ذلك قشة واحدة. فالحلال بين والحرام بين.

الوصية التاسعة :

الولاء للملك .. فمن لا يخشى السلطان لا يخشى الله .

الوصية العاشرة :

انتم طاعون الارض وزلزالها .. وبكم يبدأ عمر التاريخ. فاذا داهمتم بيتاً .. او قرية .. او مدينة .. فليؤرخ بكم. وعدل زطام من جلسته. وهوت عن وجهه لمحات الغضب فابتسم وقال :

ما رأيك .. هل تذكرتها جيداً ؟

قلت :

لم اكن اعرف نصوصها من قبل، وان كنت قد رأيتها تطبق في ارض الواقع .. ويقيني ان هنالك اموراً كثيرة كانت تجري خارج نطاق ما ذكرته من وصايا .

قال :

قد اكون نسيت اشياء او صيغ ولكن هذا ما تذكرته .

وطوتني موجات الالم وانا اتفحص عيني زطام وقد فارقها الحقد فاينع فيها الحب. وتحول هذا السجن الفار، هذا الجلاء الى انسان يعشق .. ويحب وتذكرت مآسي شعبي .. وتذكرت التجار ممن قبضوا من الاعداء ثمن رقاب الفقراء. فحولوهم الى لاجئين. ثم قبضوا ثمن رقابهم مرة اخرى من الملك فحولوهم الى عبيد .. وتربعوا على الثمن .

قاطع زطام افكاري المساوية وهو يردد :

المهم ان لا تعود الايام السوداء .

قلت :

ومن يضمن ذلك .. مادام هنالك ظالم وهنالك مظلوم. ما دام هنالك سارق وهنالك مسروق .

سأل :

وهل الفقاقيع التي تتفجر على الحدود ستعيد المسروق انها لن تعيد الا قانون الفرسان. شرد ذهني لحظتها وهام في الصحراء .. وعاد سنوات الى الوراء. وعلى طاولة مرصوفة بالمنكر تذكرته .. ذلك المهندس الذي لمح لي ان فلسطين ستولد من قلب الجرح .. ومن جوف الآلام المكبوتة .. وسخرت .. وشربت ونسيت الآلام .. لكن الفجوة ضاقت .. والألم المتفجر لم يهدأ بمسكن وخلال سنين طاف القدر على المنفى . غطاه حطم كل كؤوس النسيان وذكر كل الفقراء بأن اصابعهم تعرف ان تصنع شيئاً آخر غير الاكل .. وغير الكتابة.

وتيسمت :

قلت لزطام :

لن يرجع قانون الفرسان .

فلقد بعثت فتح الانسان .